أشباح المَنَامَة

حكايات غامضة ونهايات محيِّرة

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2019 م

رقم الإيداع: 26808 / 2019

الترقيم الدولي: 7 – 430 – 838 – 977 – 978

الكتاب: أشباح المَنـَامَة – حكايات غامضة ونهايات محيِّرة

المؤلف: أسامة إبراهيم

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل
أمام سور نادى الزمالك- الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

أشباح المَنامَة

حكايات غامضة ونهايات محيِّرة

أسامة إبراهيم

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

أشباح المنامة 7
حديقة الغرائب 13
شبح المُنتحِر 21
مفقود فاقد الذاكرة! 31
أميرة البيت المهجور 37
السفينة الموبوءة! 43
مدكور المغدور 49
بركات الميت الحيّ 53
لعنة حتحور 57
البيت المسحور... 61
الدوائر المجهولة 65
مليونير الزقاق 69
بلدة العواجيز 89

إهداء:

إلى الأجداد والجدات الذين مكثت إلى جوارهم ليالٍ طوال.

يقصُون عليّ ما لذ وطاب من حكايات غريبة وأساطير عجيبة.

أعلم أنكم لن تقرأوا هذا الكتاب، لأنكم رحلتم إلى عالم الخلود الأبدي.

أشباح المنامة

كثيرًا ما كان فتيان القرية يتحلقون كل مساء حول أحد شيوخها، يستمعون إليه بشغف وانتباه وهو يقصُّ عليهم حكاية غريبة محيِّرة خارجة عن المألوف، ليس لها نهاية محددة، ثم يتحدى مَن يستطيع فك غموضها أو يضع نهاية منطقية لأحداثها.

كنتُ شغوفًا بالاستماع إلى تلك الحكايات الغامضة، وأترقب كل مساء لاستمع لإحداها تحت سفح جبل أسيوط الغربي وسط الظلام الدامس في الليالي غير القمرية، مما يزيد من الطابع الأسطوري والغموض والخيال اللا محدود... بعدها لا أنام الليل مفكرًا في أحداث هذه القصة أو تلك، محاولًا فك طلاسمها التي غالبًا ما تستعصي على الحل.

إلا أن حكاية «المنامة المبعثرة» التي قصَّها علينا «الحاج حلفاوي» في أمسية مثيرة جعلتنا جميعًا نقف

أمامها حيارى عاجزين عن إيجاد تفسير منطقي لما حدث، بما فيهم أشدنا ذكاءً.

***

تحكي القصة عن مقبرة جماعية -يُطلق عليها «منامة» باللهجة الصعيدية- مملوكة لعائلة كبيرة عُرِفَ عن زعيمها قسوة القلب والشراسة في التعامل مع الآخرين وظلمهم وأكل حقوقهم، فكان معظم أهل القرية يخشونه ويكنون له كراهية عميقة، طبعًا باستثناء حاشيته من المنتفعين.

ذلك الرجل اسمه «مـراد»، إلا أنه اشتهر بلقب «مارد» لشدة بطشه وجبروته، وله ابنة تسمى «عوالي»، لا تعجبها تصرفات والدها وتعترض عليها أمام الجميع رغم كثرة تهديداته ووعيده لها.

في ليلة ليلاء، فوجئ الناس بالإعلان عن موت «مارد» في ظروف غامضة، وتم دفنه بالمقبرة بشكل عاجل بجوار جثث زوجته ووالديه.

وقد بررت العائلة العجلة في الدفن بمقولة «إكرام الميت دفنه»، وهو ما لقي قبولًا وترحيبًا من الجميع، متهامسين فيما بينهم بأن «موت الظالِم رحمة».

مضت عدة شهور على موت «مارد»، ثم لحقت به ابنته «عوالي» وهي في ريعان شبابها فحزن عليها الجميع... وعند فتح المنامة لدفنها فوجئ الأهالي بأن جثة «مارد» مُزحزحة بعيدًا ومنكفأة على وجهها، وكذلك الحال بالنسبة لجثة زوجته، بينما جثث والديه في مكانهما لم تتحركان.

تهامس الأهالي أن مـاردًا من الجن السفلي أو ساحرًا شريرًا قد دخل إلى المنامة وفعل فعلته، خاصة أن تلك المنامة بالذات مُحكمة الغلق ولا يجرؤ أحد على الاقتراب منها، ناهيك عن العبث بها لقوة وشكيمة العائلة المالكة لها.

عندما لم يجد الناس تفسيرًا لما حدث في المنامة، تم إعادة ترتيب الجثث بعد وضع جثة «عوالي»، وأغلقت المقبرة بإحكام شديد، وعيَّنت العائلة حارسًا

دائمًا عليها، خوفًا من قيام بعض المتربصين بفتحها والعبث بها على سبيل الانتقام أو التشفي.

***

مضت ثلاثة أعوام تقريبًا على تلك الحادثة، بعدها توفى أحد أشقاء مارد، وعندما فتح الناس المنامة لدفنه فوجئ الجميع بأن حطام الجثث مبعثرة أكثر من المرة السابقة، باستثناء جثة عوالي، رغم إقامة حارس بشكل دائم، إضافة إلى عدم وجود أي علامات تدل على أن أحدهم قد فتح المقبرة.

وفي مرة أخرى، وأثناء محاولة العائلة فتح المنامة لدفن ميت جديد، وجدت صعوبة بالغة في ذلك، وبعد جهد جهيد فتحت المقبرة فوجدت الجثث في حالة من الفوضى العارمة والأتربة تغمر الجُثث، باستثناء جثة «عوالي» التي ظلت على حالها.

لم تجد العائلة من حلٍ سوى بناء مقبرة جديدة ونقل جميع الجثث إليها لتجنب المزيد من الفضائح التي تواجهها في كل مرَّة عند دفن أحد أمواتها.

انتهى الحاج «حلفاوي» من قصته الغريبة، وكالعادة فشلنا جميعًا في إيجاد تفسير منطقي لما حدث.

***

بعضهم قال إن السبب ربما يكون هزات أرضية، لكن هذا التفسير لم يلق القبول من أي أحد، لأن القرية لم تشهد طوال تاريخها أي زلازل، كما أن هذا الأمر لو حدث لشعر به الناس وتأثرت من تبعاته كل المقابر والبيوت.

بعض المؤمنين بما وراء الطبيعة قال إن السبب هو أرواح هائمة لموتى تعرضوا لظلم سابق من «مارد»، فقاموا من مرقدهم وفعلوا هذه الأفعال الانتقامية، وقال آخرون إنه بفعل السحر الأسود، لكن هذا التفسير أيضًا لا يوجد أي دليل عقلاني عليه.

***

بالنسبة لي، لم أقتنع بأي من التفسيرات السابقة، فعبرت عن اعتقادي بأن القصة كلها هي من اختراع بعض الذين يهدفون إلى التشنيع بعائلة المارد... إلا

أن معرفتي الشخصية براوي القصة «الحاج حلفاوي»، تشير إلى أنه لم يُعرَف عنه نقل الروايات إلا إذا كان متأكدًا من صحة أحداثها.

في النهاية، لم يستطع أحد تقديم تفسير أو حل منطقيًا لهذا اللغز الذي ما زال يحيرني كما حيَّر الكثيرين، ويظل السِر غامضًا لا يعلم حقيقته إلا الله العليم.

حديقة الغرائب

سمعتُ كثيرًا عن حديقة العجائب، فقررت زيارتها مهما كلفني الأمر من جهد ووقت ومشقة، وازداد حماسي بعد أن تناقل البعض أخبارها الغامضة وكأنها من أكثر غرائب الدنيا. ناهيك عمَّا تناهى إلى مسامعي عن عالم السِحر والنساء الفاتنات وطيور الأوز التي تتحول إلى تماسيح متوحشة في لمح البصر.

أكد لي بعضهم أن زيارة تلك الحديقة ولو لدقائق معدودة تعتبر فرصة نادرة قد لا تتاح لأي إنسان في حياته إلا مرة واحدة، لهذا عزمت على المغامرة والذهاب إليها مدفوعًا بأشواقي الدائمة لرؤية كل ما هو غريب ومدهش، والكتابة عنه لاحقًا!

لَبِست ثيابي بسرعة وتركتُ غرفتي باللوكاندة الذي أقيم فيها بمنطقة شعبية، وخرجت مع أول ضوء النهار،

قاصدًا الحديقة التي قيل لي إنها تقع في وادٍ صحراوي يتوسط سلسلة من الجبال الشاهقة.

مــررتُ بموقف سيارات الأجــرة القريب من اللوكاندة، فأزعجتني أصوات السائقين المتداخلة وهي تتعالى بضجيج وفوضى لحشر أكبر عدد من الزبائن.

وقفت برهة أتأمل في هيئات السائقين وأشكالهم كي اختار مَن أتوسم فيه الصبر والمروءة وقلة الكلام، إلى أن وقع اختياري على سائق طاعن في السن شعرت أنه الشخص المناسب. وعندما اقتربتُ منه قال لي بابتسامة طيبة:

- تفضل حضرتك!..

جلست على المقعد الأمامي بجواره، فانبسطت ملامحه وهو يرتمي وراء مقود سيارته العتيقة بحماسة شاب، ثم أدار محرِّك السيارة، والتفت إليَّ وسألني:

- الحديقة... يا باشا؟!.

هززتُ رأسي موافقًا فانطلقت السيارة صاعدة إلى هناك!..

دققت النظر في الدرب الذي تعبره السيارة فوجدته محاطًا بأشجار العفريت(*) من الجانبين؛ ولفت نظري مجموعة من الخيول تجر عربات خشبية وقد اعتلاها أشخاص يبدو الفرح على ملامحهم وهم يغنون ويلوحون لكل السيارات التي تمرّ بهم. فشعرت بسعادة بالغة ودهشة بجمال حركاتهم ولطف أشكالهم!..

طوال الطريق الذي بلغ عدة كيلو مترات، لم ينبس السائق ببنت شفة وهو ما أعجبني فيه... لكن بدأت أتوجس خيفة حين بدأت أشعة الشمس في الغروب ولم نصل إلى الحديقة بعد،.. وحين وصلنا توقفت

(*) شجرة العفريت متوسطة الحجم مستديمة الخضرة يصل إرتفاعها إلى 20م. أوراقها ذات أشكال متنوعة، فهى ما بين بيضية إلى رمحية ، كاملة الحافة أو مفصصة، لامعة، ذات عنق طويل، مدلاة فى عناقيد إبطية، وغالباً منقطة بنقط حمراء، ملساء ناعمة من الداخل وعليها شعيرات من الخارج. السطح الداخلى للثمرة الجرابية (للجراب) مغطى بشعيرات زغبية صغيرة تسبب الرغبة فى حك الجلد عند ملامستها له، لذا سميت بالعامية «بودرة العفريت»- المصدر: موقع الشبكة المعلوماتية للتنمية الزراعية (ainagri.com/index.php?lang=ar).

السيارة أمام أحد أبواب الحديقة، وسألني السائق وأنا أناوله أجرته التي اتفقنا عليها:

– حضرتك محتاجني أطلع معاك الحديقة، لأني عارف المكان كويس، وألا تحب انتظرك هنا؟..

شكرت السائق وأخبرته برغبتي في الذهاب إلى الحديقة وحيدًا وأكتشف المكان دون دليل أو رفيق، وأنني لا أدري متى سأخرج من الحديقة بالضبط.

أخذ السائق أجرته واستدار بسيارته منصرفًا بكل أدب. بينما صعدت أنا إلى درجات مدخل باب الحديقة الواسع المُزين برسوم محفورة بدقة بالغة على جدران رخامية تبدو كأنها من آلاف السنين.

دنوت من الرسوم كأنني مشدود إليها مخدرًا، ووهو ما شغلني عن الالتفات إلى الأعمدة الحجرية الضخمة المدوَّرة بإتقان مبهر ومُطعَّمة بالأحجار الكريمة بألوانها وأشكالها التي تكاد تخطف البصر.

وبينما أنا أتأمل الصور، لفت نظري شخص أشبه بالبهلوان يقوم بنفخ بالونات صابون ملوّنة، وقد التفَّ حوله عدد من الأطفال يصفقون ويصرخون كلما نفخ

بالونًا وطيّره إلى الأعلى، أو كلما انطفأت واحدة منها. وبدأ الجميع في حالة من الفرح الصافي الجميل، وأمهاتهم من حولهم فرحات أيضًا يقفزن ويصرخن في هياج كلما صرخ أطفالهن وتقافزوا.

وجدت قدماي تقوداني إلى ساحات وشوارع وحفر ضيقة وأخرى واسعة، تحيط بي من كل جانب أشجار كثيرة متفاوتة الأحجام والأشكال... ورأيت أجسادًا مسترخية عارية تفترش أعشاب النجيل وبالقرب منها أفران هائلة متوهجة بالجمر تقف أمامها نساء باهرات الجمال؛ كلٌّ منهن تلقي بنفسها داخل الفرن برغبتها الكاملة فتتصاعد رائحة شواء آدمي، ولم أسمع أحد من الحضور يعظهن بألا يكُن قاسيات على أنفسهن بهذا الشكل الفظيع.

وفي الناحية المقابلة من أفراد شي الأجساد البشرية، صدمني رؤية بعض الشباب وهم يلقون بأنفسهم داخل براميل كبيرة ممتلئة بالماء المغلي، وصعقت أكثر عندما رأيتهم يصعدون إلى أعلى الأشجار المطلَّة على البراميل ويقذفون بأنفسهم فيها بكامل إرادتهم، بل رأيتهم يشجعون بعضهم بكل همَّة ونشاط...

وفي مكان غير بعيد من هؤلاء الشباب، مررت على ركن من الحديقة، فوجدت سيدة تبكي بحرقة مع كلبها، وقد تناثر شعرها، وقربها صورة لرجل كهل أنيق الثياب، وطفل صغير فاتح ذراعيه لكرة تكاد تسقط من بين يديه، وخلفها لافتة قماشية طولها حوالي عشرة أمتار مكتوب عليها:

[أمنية حياتي أن يكون لي طفلًا مثل هذا، ورجلاً مثل هذا، وكلب مثل هذا أيضًا]،

استمرت المرأة في المزيد من البكاء، وعندما ابتعدت عنها زاد نواحها أكثر، فمضيت هائمًا على وجهي وأنا أشعر بأنني لست أنا، حيث إنني لم أنفعل أبداً بما أرى من مشاهد غريبة صادمة، وكأن حواسي تجمدت أو سقطت مني سهوًا..

مضيت في طريقي حتى وصلت إلى بحيرة تسبح في مياهها طيور الأوز، وكلما أمعنت النظر إليها تحولت الطيور شيئاً فشيئاً إلى تماسيح ضخمة بشعة المنظر، تسابقت في شرب ماء البحيرة فانتفخت كالمناطيد الضخمة ثم طارت!..

استدرت إلى ناحية أخـرى، فرأيت فتى وفتاة يجلسان تحت شجرة ريحان باسقة... كانت الفتاة تتوسل للشاب أن يقبلها خادمة عنده أو حتى مداسًاً لقدميه، بينما الشاب مغلق الفم جاحظ العينين يضربها بقضيب من حديد يقطر دمًاً، ومع ذلك استمرت في التوسل إليه. وكلما توقف عن ضربها تداعبه وتلاطفه وهي ترقص داخل الماء بثوبها الشفاف الأبيض الذي يكشف عن جمال أسطوري، ودمها يصبغ مجرى الماء باللون الأحمر القاني!..

وبموازاة سور الحديقة، رأيت رجلاً ضخم البنية وهو يحفر قبرًاً، ومن حوله أشخاص يحفرون بهمة ونشاط، وبدأ بعضهم في إخـراج جثث للموتى، وأصواتهم متداخلة تتعالى على شكل أناشيد ومواويل حزينة وحماسية، وهم يواصلون الحفر بنشاط وحماس من أجل إخراج الموتى للحديث معهم!

لم أستطع الوقوف أكثر من ذلك أمام هذا المشهد فتقهقرت إلى الوراء وأنا مغمض العينين، لكني عندما فتحتها لم أجد أحدًاً من هؤلاء، كما اختفت السيارات الكثيرة التي كانت مصطَّفة بشكل عشوائي كالأفيال.

أوشكت على السقوط في حالة من الإغماء، وصدمتُ حينما رأيتُ السماء ملبَّدة بطيور سوداء هائلة ذات مناقير فولاذية، وهي ترش الأشجار والنباتات والـدروب بمسحوق أبيض لزج مثل الصابون، فراح المسحوق يتكاثف حتى صار بعلو قامتي. وفجأة خرجت جموع من النساء وهن يركضن ويلهثن ويرفعن أكفهن إلى الأعلى ليتلقفن المسحوق الأبيض قبل أن يسقط على الأرض، حتى غرقن إلى أكتافهن في رغوة المسحوق...

مضت عدة دقائق، ثم بدأت السماء تصفو وغابت الطيور السوداء، وخرج أناس من كل مكان، وعلت الأحاديث وتداخلت وضجت أصـوات السيارات المندفعة هبوطًاً وصعودًاً، فأنتبه لنفسي واستدرت نحو رجل يربت على كتفي، فإذا هو السائق الذي أوصلني... ابتسم باحترام شديد، وحين نظرت إليه قال لي:

– أدخل الحديقة يا أستاذ حتى لا تتأخر، فالمناظر بالداخل أجمل بكثير من رسوم البوابة وصورها!..

يا إلهي! ماذا حدث لي؟!. هل يعقل أنني لم أدخل الحديقة بعد!

شبح المُنتحِر

لم يندهش «شهاب» وهو يقرأ في الصحيفة خبر انتحار زميله الفنان التشكيلي «باهر»، فهو الوحيد الذي يعلم أنه قد تسبب في مقتله... لذلك سارع بإشعال النار في الصحيفة التي نشرت الخبر كأنه يتخلص من جسم الجريمة أو دليل اتهام دامغ ضده.

ظلَّ «شهاب» أيامًا طوال ينتابه الرعب من كل اتصال على هاتفه المحمول أو طارِق لباب شقته، بل إنه ينزعج من مجرد رؤية شخص ما يقترب منه، فهو يشعر دائمًا بأن «باهر» سيعود من قبره يومًا ليضحك حتى الدموع ويقول له: «أنا لم أمت».

مرَّت الأيام، وشهاب يحاول نسيان جريمته، لكن حال دون ذلك زوجته «نادين» التي كانت بالنسبة له مثل سلاح ذو حدين، فهي من ناحية أشبه بالمخدر

الذي يبعد عنه ذكريات «باهر»، ومن ناحية ثانية يتذكر بأنها كانت حلم حياة صديقه الذي اختطفها منه بالمكر والخديعة...

إلى أن جاء اليوم، في ذلك المساء بالذات، وهو يُقَبِّل ابنته الصغيرة، وهي تهمس له متثائبة:

– تصبح على خير يا بابي.

أضاءت كلمات الطفلة ذاكرته، ونظر إليها في هلع... «إنها ليست ابنتي... إنها ابنة باهر التي سرقتها منه، وها هو قد أتى عبر الزمن ليأخذها مني»!.. عاد ليسترد لحظة السعادة وحلم حياته، اللحظة الخالدة!

***

Flashback

سمع «شهاب» صوت أقدام قلقة تتوقف أمام باب شقته، ومرَّت لحظات طويلة ثم دوى رنين الجرس، فقفزت «سالي» تلف جسدها العاري بملابسها وفي عينيها يمتزج القلق بالتساؤل.

وضع شهاب فُرَش الرسم بغيظ وتوتر على منضدة بجانبه، وسقط بعضها الآخر على الأرض، وفتح الباب بغضب فوجد أمامه «باهر» بقامته الفارعة وعينيه المتنمرتين، يرتدي نفس الثياب التي جاء بها أول يوم إلى كلية الفنون الجميلة.

تقدَّم باهر وهو يرسم ابتسامة خجلة على شفتيه، ومد يده باضطراب لإدراكـه أنه جاء بدون دعوة، فتناثرت الكلمات من فمه:

– باهر: آسف شهاب، الظاهر إنك بترسم، وأناااا، أقصد، احتمال...

– شهاب: اتفضل، قربت أخلص.

دخل باهر إلى المرسم وتلمس طريقه وسط اللوحات، كأنه يسير فوق أرض موحلة فكاد يسقط أرضًـا حينما رمق سالي وهي تعدل من ملابسها ولاحقها بنظراته وهي تغادر حجرة المرسم، ثم عادت عيناه تبحثان عن اللوحة وظلتا معلقة بالرسم طائفة حول خطوط الجسم العاري الذي أوشك أن يكتمل.

شعر شهاب من وقفة باهر ومن صمته أنه يتأمل أدق تفاصيل اللوحة،، فبدأ يتململ وينتابه الغضب... عندما بدأ في الكلام.

- باهر: أكيد اللوحة دي عجبت سالي!

- شهاب أجابه في اقتضاب: متكلمناش في الموضوع ده.

- باهر: سالي لا تخلع ملابسها إلا أمامك، لتأكدها أنك ستظهر جمالها، أنت متمكن من تلبية غرور المرأة في لوحاتك، وده سبب أساسي لشهرتك الفنية، خصوصًا وأن نقاد الفن وأستاتذة الكلية يجاملونك.

شعر شهاب بموجة من الغضب تكاد تعصف به، فهمَّ بأن يصرخ فيه ولكن حلقه جفَّ فجأة. بينما استمر باهر في حديثه:

- أنت ترسم سالي بشكل مبهر، في عينيها أنوثة وحياء، وجسمها لونه جميل كأنما رسم بماء الورد، يا ترى جسمها فعلًا يشع هذه الهالة من النور؟

ردَّ عليه شهاب وهو يبتلع غضبه ويحاول أن يبدو هادئًا:

- يا ترى انت حاولت ترسمها؟

- باهر: قعدت قدامي مرة واحدة في المرسم، لكن رفضت أن تقف أمامي عارية، ومع ذلك جردتها من ملابسها في لوحتي، رسمتها جسد مكدود، كتلة جوفاء، بدون أعين، بدون ذراعين، مجرد أثر لشفتين ونهدين، وساقين، ولم أرسم السرير الذي كانت تنام عليه ولا الملاءة البيضاء ولا الستارة الذهبية، وأكملت تكوين اللوحة بعشرة أذرع حمراء تمتد نحوها، مثل ذئاب تنهش في جيفة ميتة...

سكت باهر قليلًا ازداد خلالها بريق عينيه لمعانًا، وضحك في سخرية وهو يقول:

- أكيد إنت فاكر اللي حصل يومها، شتمتني سالي عندما رأت الرسم ونظرت إليَّ باشمئزاز، وعندما أخبرت زملائي أنهم أصحاب الأذرع الحمراء الممتدة نحوها اتهموني بالجنون. أما أساتذتي بالكلية فاعترضوا على عدم رسمي لعينيها، وسألوني عن معنى الأيادي الحمراء، وما أقصده بالجسد الأجوف،

وعنفني أحد الأساتذة عندما حذفت السرير والملاءة والستارة الذهبية رغم أنها وضعها بنفسه.

وبعد لحظة صمت أضاف باهر:

– ضحكت يومها حتى دمعت عيناي، وتهامس الجميع وسمعت همسهم وهم يرموني بالجنون، وإنني لا أعرف الرسم، لكن لم أرد عليهم ولم أتهمهم بالجنون، ولم أقل لهم أنني وأنا في العاشرة من عمري كنت أرسم أحسن من أي واحد منهم الآن.

صمت باهر مرة أخرى، ولكن شفته السفلى كانت ترتعش، وعادت كلماته تتساقط في مرارة:

– غضب مني الجميع فتركتهم بلا رجعة، ولم أندم على تركي الكلية، فالفن مثل الطائر لا يمكن أن نحبسه بين أربعة جدران بحجة التعليم... لكن الشيء الوحيد الذي آسفت عليه هو ابتعادي عن «نادين» فهي الإنسانة الوحيدة التي كانت تعني الكتير لي، ومن أجلها عملت في صمت وإصرار كل الفترة الماضية، ومن أجلها سأقيم أول معرض للوحاتي، وعندما ينجح المعرض سوف أتقدم إليها وأصارحها بحبي...

انتفض شهاب عندما سمع هذا الكلام، وكأن دوي هائل قد سقط على قلبه وأصم أذنيه، لا يمكن أن يعني أنه أحبها... نادين... استحالة!.. ثم أفاق على كلمات باهر تأتيه من بعيد:

– أنا أحن للزواج وأحلم بتكوين أسرة، أحلم بطفلة صغيرة تقول لي «تصبح على خير يا بابي»، وأضعها في الفراش وأقبّل جبينها، ستكون أجمل لحظة في حياتي، والحلم الذي يتعطش إليه قلبي.

تنهد باهر وخفت نبراته واحتبس صوته، ثم اعتدل في جلسته وأشاح بوجهه عن شهاب، وهو يقول:

– ليه احنا بنتكلم في الحاجات دي، أنا جيت عشان آخدك معايا، فأنت الوحيد اللي بثق فيه، ومحتاج رأيك بصراحة في رسوماتي اللي اشتغلت عليها أربع سنين، لوحاتي اللي هتشوفها مفيش مخلوق شافها قبلك، ورغم ثقتي في نفسي لكن أحس إني بتخبط في الظلام وإنني ضللت سبيلي، وأحيانًا بكون عايز احطّم لوحاتي اللي رسمتها بروحي وأعصابي.

صحب باهر زميله شهاب إلى المرسم وهم يتحدثان طوال الطريق، ولكن خواطر مجنونة بدأت تطوف بذهن شهاب بعد أن استحضر كلام باهر عن حبه لـ نادين ورغبته في الزواج بها.

أفاق شهاب وهو يشاهد لوحات باهر، الأبخرة التي تكاثفت في فكره تحولت إلى ما يشبه الثلج في أعماقه وهو يشاهد اللوحات التي لم يرها إنسان قبله، فأدرك أن باهر لم يكن- كما قال- يتخبط في الظلام وإنما استطاع برسوماته أن يضيئ وجه الحقيقة.

شعر شهاب أنه يقف أمام أعمال فنية عظيمة، خارقة للمألوف، فهو لم يرسم الإنسان من الخارج وإنما غاص في أعماقه... ألوان اللوحات كانت حادة ولكنها تكاد تنبض بالحياة.

لم يعلق شهاب على ما رأى، فقد أدرك أنه يقف أمام فنان عبقري، لكنه لم يدرك أنه توصل إلى ما لم يصل إليه غيره.

كان باهر ينتظر رأي شهاب، وفي عينيه لهفة لم يحاول إخفاءها، وتطلّع إلى شفتيه كأنما يدفعه

للحديث، لكن شهاب شعر بفجوة كبيرة تفصله عن باهر، وامتلأ قلبه بالكره له والحقد عليه، كأنما قد كرهه طوال حياته، وحقد عليه حتى قبل أن يولد!

قرر شهاب أن يوصد نافذة الأمل أمام باهر ويقتل كل آماله، كان يخشاه إلى درجة الرعب، ومع ذلك فقد رسم في عينيه نظرة إشفاق، وفي بطء وبرود قذفه بكلماته:

– انصحك ترجع للكلية من جديد، أكيد هتستفيد وتطور نفسك!

صعقته كلماته، أدرك أنه فشل فتركه مبهوتًا وانهار على كرسيه كإنسان ضاعت حياته... وفي طريق العودة، زادت النيران اشتعالًا في أعماق شهاب، ولم تطفئها لفحت نسمة الهواء التي لفحت وجهه، وسؤال واحد يطوف بنفسه:

– كيف يجرؤ باهر على حب نادين وهي التي اخترتها لتشاركني حياتي!

استجابت نادين لرغبة شهاب في الزواج بها وهي سعيدة وأسرعا بعقد القران، وأرسل له بطاقة دعوة...

ولم يتحمل وقد تحطم فيه الفنان والإنسان، وانهار أمله الأخير في السعادة، فقد قطع عليه شهاب كل الخيوط التي تربطه بالحياة.

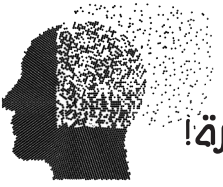

مفقود فاقد الذاكرة!

كان لي صديق شغوف بتأليف قصص الإثارة والرعب ويتمتع بخيال جامح، حتى أنه اشتهر بين أقرانه في النجع بتأليف الحكايات الغريبة وابتكار الألغاز العجيبة، ثم يتحدانا جميعًا أن نجد تفسيرًا لهذا اللغز أو ذاك.

صديقي «علوي» ينتمي لعائلة ثرية تسكن في دوَّار تحيطه أسوار عالية من جميع الجهات، ونظرًا لأن عائلته تعاني من خلافات ثأرية مع عائلات أخرى، فإن منزلهم تحت الحراسة على مدار اليوم، بشكل يجعل من غير الممكن دخول أحد أو الخروج إلا بعلم الخفر وتحت أعينهم.

في صبيحة أحد الأيام، استيقظ الأهالي على منادي النجع معلنًا عن اختفاء «علوي» في ظروف غامضة، ولم يعثر له أحد على أثر...

حدث ذلك رغم تأكيد جميع مَن في المنزل أنه بات آخر ليلته الأخيرة قبل اختفاءه داخل غرفته، ولم يشاهده أحد وهو يخرج من الدوَّار.

مـرَّت الليالي والأيـام واستمر البحث في المستشفيات والأقسام والأماكن التي يرجح ذهابه إليها، لكن لم يتمكن أحد من حَل لغز الاختفاء، حتى بعد تدخل رجال الشرطة الذين لم يتركوا وسيلة للبحث والتحري إلا لجأوا إليها، ولم يستثنوا صديقًا أو قريبًا أو مشبوهًا إلا سألوه وحققوا معه.

وقد ازداد الأمر انتشارًا عندما وصل خبر الإختفاء المريب إلى الصحف والقنوات الفضائية، فبدأ الصحفيون والمذيعون يتوافدون من القاهرة إلى النجع، وتحول منزل العائلة إلى محطة لرجال الإعلام الذين يحاول كل منهم تحقيق سبق إعلامي بالبحث في كل صغيرة وكبيرة، وبدأت وسائل الإعلام في استضافة الخبراء والمختصين في علوم الجريمة في محاولة للتوصل لفك لغز اختفاءه.

***

بعض الناس عبَّر عن شكِّه في أن علوي قد انتحر واختار لذلك مكانًا غير معلوم ليظل لغز اختفاءه غامضًا إلى الأبد... لكن هذه الشكوك قوبلت بالرفض خصوصًا أنه شاب متدين مستقيم ينتمي لعائلة عريقة تتوارث العمودية، ثم إنه كان متفوقًا في دراسته وحصل على مجموع مرتفع في الثانوية العامة مكَّنه من الالتحاق بكلية الهندسة بسهولة، وكان ينتظره مستقبلًا مرموقًا.

لكن ما لم يعرفه أحد عن ذلك الشاب، أن حياته لم تكن سعيدة أو هانئة، فقد عاش قصة حب ملتهبة مع فتاة من بنات النجع، لكن هذه القصة قُتِلَت في مهدها بسبب خلاف تاريخي بين عائلته وعائلة الفتاة، وهو ما جعل والدها يبادر بإعلان خطبتها إلى ابن عمها لتجنب تزويجها من ابن أعداءه، فأصيب «علوي» بحزن واكتئاب مزمن، وتعرض لصدمة نفسية أفقدته الرغبة في كل شيء.

من ناحية ثانية، لمَّحت بعض وسائل الإعلام إلى احتمال تعرض الفتى للاغتيال على يد عائلة المعادية، لكن هذا الاحتمال استبعد أيضًا بسبب عقد صلح

بين العائلتين، وصار بينهم علاقات نسب وصداقة ومصالح مشتركة.

بعض أصدقاء علوي تهامسوا فيما بينهم بأن اختفاءه مجرد حيلة جديدة من ألاعيبه ضمن سعيه الدائم إلى اختلاق قصص غير المألوفة، ويجعل الجميع يلفون حول أنفسهم عاجزين عن إيجاد حل لهذا اللغز.

وقد عزَّز من هذا الاعتقاد، ما اعترفت به شقيقته وأقرب الناس إليه، من أن شقيقها أكد لها ذات مرة أنه قادر على الإختفاء ولا يستطيع أحد أن يصل إليه.

***

ازاد الأمر غموضًا وغرابة، بعد وصول رسالة من «فاعل خير» تلقاها والده على هاتفه المحمول تؤكد أنه شاهده داخل أحد الفنادق بالقاهرة، وأنه يخرج كل ليلة للتنزه والسهر، ثم يعود إلى الفندق في نهاية اليوم.

على إثر ذلك، وصل والده وأخوته عاجلًا إلى الفندق، وفوجئوا به فعلًا وهو يجلس في «ريسبشن الفندق» يرتدي ملابس فاخرة ويدقق في هاتف

محمول من النوع غالي الثمن، وعندما توجهوا نحوه نظر إليهم نظرة من يعرفهم لكن لا يتذكر أيًا منهم، وكأنه قد أُصيب بفقدان الذاكرة؟!

الأكثر إثارة، أنه في الليلة التي اختفى فيها علوي، كان يرتدي زيًا منزليًا عاديًا ولم يكن معه الكثير من المال، وعندما عُثِرَ عليه كان يرتدي بذلة فاخرة، وقد أخبر إدارة الفندق أنه قادم من إيطاليا بعد غيبة طويلة عن مصر.

في النهاية، استطاع والده وأخوته اقناعه بالرجوع معهم إلى القرية رغم أنه لم يتذكر أيًا منهم... وشيئًا فشيئًا بدأ يعود إلى حياته الطبيعية ودراسته الجامعية، لكنه كان يُعرِض تمامًا عن الحديث عن ظروف اختفاءه، ويتهرب من أي شخص يحاول فتح هذا الموضوع معه.

***

هل صحيح أن علوي فقد الذاكرة فعلًا؟.. ومن أين أتى بالبذلة الفاخرة والأموال الكثيرة التي كانت بحوزته؟..

يعتقد أحد أصدقاءه المقربين أن اختفاءه كان مجرد خطة رسمها حتى يجبر عائلته وعائلة حبيبته للموافقة على اقترانهما بالزواج، وهو ما نجح بالفعل في تحقيقه، بعد فسخ خطبتها من ابن عمها.

لكن حتى زوجته وحبيبة عمره لم تعرف سِر لغز اختفاءه الغامض حتى الآن!

أميرة البيت المهجور

منذ طفولته المبكرة، كان «برهان» دائم الإلحاح على والده ليصطحبه إلى بيت مهجور في مكان معزول عن مساكن القرية.

يبتسم الوالد مندهشًا من رغبة ابنه الغريبة في الذهاب إلى هذا البيت بالذات، لكنه مع ذلك كان يصطحبه إليه. وفي تلك الأثناء يمشي الولد صامتًا متأملًا ما حوله في شرود، تنتابه سعادة داخلية لا يعرف أسبابها ولا مصدرها.

عندما كبر قليلًا، اعتاد على الذهاب إلى ذلك البيت بمفرده، حتى أن أصدقائه ومعارفه كانوا يجدونه هناك إذا افتقدوه.

في ليلة شتوية، كان يجلس متأملًا كعادته في البيت، وإذا به يفاجأ بسيل من المطر المنهمر، فقرر الدخول إلى ساحة المنزل ليحتمي من المياة الغزيرة، وما إن سار داخل

البيت حتى تملكته الدهشة عندما وجد نفسه وسط حديقة خلابة ومناظر بديعة لم ير لها مثيلًا في حياته. ومن شدة دهشته لم ينتبه إلى أن القصر ظهر مكان البيت المهجور.

***

– يااااه.. أخيرًا تحقق حلمي بدخول هذا القصر ورؤية من تسكنه.

قالها مذهولًا ثم دفع أحد أبواب القصر برفق، وعندما دخل سمع أصوات زقزقة عصافير كأنها ترحب بقدومه.. فنادى في ذهول:

– من هنا؟!

لم يجد إجابة إلا صدى صوته... فأطلق نداءً ثانيًا وثالثًا، دون جدوى.

رغم الصمت المطبق من حوله، إلا أنه تعمق داخل القصر وتجول بين ردهاته إلى أن قادته قدماه إلى غرفة ينبعث منها ضوء خافت فطرق بابها..

فتحت له امرأة ملائكية كأنها حورية من الجنة، فوقف مسحورًا أمامها وأمسك بيديها وقبلهما فابتسمت له ابتسامة كلها حب ودلال وحنان. فقال لها:

– وجدتك أخيرًا يا فتاة أحلامي.

قالت له والابتسامة الساحرة ما تزال تزين شفتيها:

– أنا أيضًا أنتظرك طوال عمري.

قضيا سويًا وقتًا كأنه ليلة من ألف ليلة... لم يعرف كيف مضى الوقت ولا ماذا حصل، اللهم إلا باقة من الورد أعطتها له وهو يغادر القصر.

***

لا يدري برهان كيف عاد إلى بيته ومكث في غرفته منعزلًا سويعات قليلة هائمًا حالمًا حتى أشرق فجر اليوم التالي، وهو شغوف بلقاء أميرته من جديد..

خرج متوجهًا إلى البيت المهجور ودخل إلى ساحته... لكن لم يكن هناك قصر. بل وجد نفس نفس تفاصيل المنزل القديم الذي اعتاد على رؤيته منذ طفولته.

اتجه إلى حلاق مجاور للبيت واستفسر منه عن القصر؟

– قصر في قريتنا؟!

رد الحلاق الطيب ضاحكًا وهو يضرب كفًا بكف، وأضاف:

– منذ عشرين سنة وأنا أعمل بالقرب من هذا البيت ولم يدخله أحد سواك!

***

لكن... هناك ثلاثة شهود أكدوا أن ذلك الشاب –الذي زادت عزلته وانطواءه– لم يكن ضحية حلم أو هلوسة:

فأثناء عودته إلى بيته بعد أن غادر القصر، لمحه أحد أصدقاءه من بعيد وهو يمسك باقة الورد ويسير في الشارع باتجاه بيته.

وعندما اقترب من بيته، قال له أحد جيرانه مازحًا:

– من أين حصلت على هذه الزهور في هذا الوقت؟

الدليل الثالث «الزهور».. لقد أعطى برهان واحدة منها لكل من في بيته، وكانوا خمسة من عائلته، قالوا أنهم لم يروا زهورًا بهذا الجمال!

كيف حدث هذا إذن؟!

لم يستطيع أحد أن يعرف الإجابة حتى الآن، وما زال الشاب يهيم على وجه باحثًا عن أميرته في البيت المهجور...

السفينة المهجورة!

في منتصف شهر مايو ١٨٣١م، كانت السفينة المصرية «الفسطاط» تُبحر في مياه بحيرة فيكتوريا ضمن بعثة أرسلها والي مصر في ذلك الوقت «محمد علي باشا»، لتأمين منابع النيل منذ عام ١٨٢٩م.

لاحظ القبطان محمد الترجمان، قائد السفينة «الفسطاط» أن سفينة شراعية تسير في طريق غير محدد في شمال بحيرة فيكتوريا التي تعد الأعظم في إفريقيا، وتضم حوالي 3 آلاف جزيرة.

اقتربت «الفسطاط» من الهدف لتقديم المساعدة، فوجدت السفينة المتخبطة تُبحِر وساريتها منصوبة وشراعها مشدودة، وهي مؤشرات يعرف البحارة أنها تدل على أن السفينة خارجة عن السيطرة.

أرسل القبطان المصري إشارات إلى السفينة لكنه لم يتلق جوابًا، فاقتربت الفرقاطة أكثر فاكتشف أنها السفينة البريطانية «Evans shib»، ويعرف قبطانها توماس جاكوب، إذ التقيا قبل نحو شهر في ميناء أسوان، وها هي السفينة البريطانية في وسط البحر دون أية دلائل تشير إلى وجود حياة على متنها.

لقد تبين أن السفينة البريطانية متضررة جدًا، لكنها لم تكن عرضة للغرق، مما دفع القبطان محمد الترجمان إلى التساؤل عن سبب هجران طاقمها لها!

تبين كذلك أن بعض الصناديق من حمولة السفينة مفتوحة ومفرَّغة بشكل عشوائي، فاستنتج القبطان المصري أن البحَّارة أخلوا السفينة على عَجَلة من أمرهم، وعندما دخل غرفة القبطان لاحظ اختفاء أدوات الملاحة وجهاز قياس السرعة.

***

في ذلك الوقت، كان قباطنة السفن يكتبون كل تفاصيل الرحلة يوميًا في سجل مخصص لذلك.

وقد اكتشف القبطان المصري أنه مضى على آخر تدوين بالسجل ثمانية أيام، وهو ما يؤكد أن السفينة أبحرت كل تلك الأيام دون طاقم.

رغم توجس طاقم الفرقاطة المصرية من حال تلك السفينة، إلا أن القبطان محمد الترجمان أمر اثنين من بحارته بقيادة السفينة البريطانية والعودة بها إلى أسوان، وهناك تم تسليمها لممثل المندوب الإنجليزي.

عند البحث في تاريخ تلك السفينة، تبين أنها مرت بظروف غريبة الأطوار، فبعد يومين فقط من إبحارها الأول مات قبطانها على متنها في ظروف غامضة، وفي رحلتها الثانية اصطدمت بصخرة في وسط البحر وتهشمت، وأثناء تصليحها التهمت النيران قوارب النجاة بها، وبمجرد أن أبحرت بعد الترميم اصطدمت بسفينة أخرى وأغرقتها، ثم تعرضت لحادثة جديدة دمرتها بالكامل!

وبعد أن يئس ملاك السفينة، باعوها بثمن بخس إلى مالك جديد فأعاد بناءها وتطويرها وأرسلها إلى أعالي النيل لنقل البضائع.

بالعودة إلى الحادث الأخير الذي تعرضت له السفينة، فقد رجَّحت تحقيقات أولية أجرتها السلطات البحرية البريطانية في ذلك الوقت حدوث تمرد على ظهر السفينة، بعد أن اكتشف المحققون وجود تخريب متعمدًا في بِنية السفينة، إلا أن المحققين بعد ذلك استبعدوا هذه الفرضية لوجود جميع متعلقات البحارة على حالها، مما يدل على أن هجرهم لها كان لأمر خارج عن سيطرتهم.

كاد مالك السفينة يشرف على الإفلاس بسبب الخسائر الفادحة التي تكبَّدها، فبادر ببيعها لأشخاص آخرين لم يكونوا على عِلم بماضيها الأليم.

وخلال ستة أشهر مات قبطانها الجديد وانتحر أحد ملاكها، وتعرض شريك آخر للجنون بعد أن جنحت السفينة واصطدمت باليابسة وتهشمت تمامًا، ودخلت في عالم النسيان!

بعد أكثر من مائة عام على تلك الأحداث التراجيدية، بعث الروائي الإنجليزي «أرثر دويل» هذه

السفينة إلى الوجود من جديد عندما كتب رواية عنها تحولت لاحقًا إلى أفلام خيالية ومسلسلات تلفزيونية، جميعها تزعم أن السفينة تعرضت لسحر أسود أو ملاحقة كائنات فضائية، وربما كانت ضحية لهجمات سرب شرس من أسماك القرش.

مدكور المغدور

في مطلع الستينات من القرن الماضي، ظهر شاب مراهق غريب الأطوار يرتدي ملابس بالية، وهو يتسكع في شوارع القرية، ويتمتم بلغة غريبة غير مفهومة، يتسول الطعام من المارَّة.

في تلك الفترة، كان من المعتاد إلقاء القبض على جواسيس وخونة يعملون لحساب العدو الإسرائيلي وغيره من أجهزة الاستخبارات الأجنبية المعادية لمصر، وهو ما جعل الأهالي يرتابون في ملامح ذلك الشاب وهيئته الرثة.

عندما ألقت أجهزة الأمن القبض على الشاب غريب الأطوار، وجدت أنه يحمل في جيبه رسالة من سيدة تزعم أنها والدته ذكرت فيها أن اسمه «مدكور» وتوصي من يعثر عليه برعايته وتوفير متطلباته الحياتية نظرًا لعدم تمكنه من رعاية نفسه لمعاناته من مرض عضال.

رغم كثرة محاولات جهات التحقيق التوصل إلى حقيقة الفتى، إلا أن أحدًا لم يتمكن من معرفة هويته، فقد كان يتمتم بكلمات غريبة غير مفهومة ليس لها علاقة بأي من اللغات المعروفة، لكن لوحظ أن لديه ملكة شم قوية وقدرة على رؤية الأشياء بوضوح كامل في ظلام الليل الدامس.

اعتقد البعض أن الفتى أبله معتوه أو مصاب بالتوحد، لجهله بكل تفاصيل الحياة البديهية المتعارف عليها...

لكن تبين لاحقًا أن الشاب أبعد ما يكون عن ذلك.

تم إلحاق مدكور بوحدة خاصة داخل مستشفى الأمراض النفسية والعقلية بالعباسية، فبدأ يتعلم بسرعة دلَّت على ذكاء فوق المتوسط، وبعد شهور قليلة تعلَّم ما يكفي من اللغة العربية بحيث تمكن من الحديث عن تفاصيل ما مرَّ به في حياته السابقة.

***

تذكَّر مدكور أنه كان يعيش داخل غرفة ضيقة لا يغادرها إلا لقضاء الحاجة، وكلما استيقظ يوميًا وجد

الخبز والماء بجانبه على الأرض، وعندما يشرب الماء في بعض الأحيان كان يفقد الوعي ويغرق في نوم عميق، وبعد استيقاظه يكتشف أن أحدًا قد نظَّف جسمه وبدَّل ثيابه.

هذه المعلومات المبهمة زادت الأمر غموضًا، مما جعل أجهزة الأمن تعمم مواصفات مدكور على كل أقسام الشرطة عسى أن يتمكن أحد من تحديد هويته، لكن ذلك لم يحدث أبدًا.

وفي صبيحة أحد الأيام، وُجِدَ مدكور ملقيًا على أرضية غرفته بالمستشفى دامي الوجه، وهو ما يشير إلى أنه قد تعرض للضرب المبرح أصابته بجروح مختلفة، لكن لم يتمكن أحد من تحديد هوية الفاعل!

وبعد عدة سنوات، فوجئ أحد الحراس بأن جسد مدكور ينزف بغزارة على إثر طعنة نافذة بين أضلاعه فتم نقله إلى المستشفى على الفور لكنه لفظ أنفاسه ومات ودُفِنَ سِرَّه معه، وبقي لغز ظهوره ومقتله لغزًا لا يُحَل.

هذه القصة حكاها لي أحد المعمرين الذين شاهدوا مدكور، وكان ذلك خلال أمسية جمعتني مع بعض الأشخاص المغرمين بفك الألغاز والبحث في الأمور الغامضة.

وقد عبَّر ذلك الشخص عن ظنه بأن مدكور هو ابن غير شرعي لأحد الأثرياء، فقام بسجنه في مكان منعزل خشية الفضيحة، وظل لسنوات طويلة لا يتبادل الحديث مع أحد، وعندما كبر الشاب هرب من محبسه العائلي حتى قادته قدماه إلى القرية بالهيئة التي ظهر عليها.

شخص آخر اعتقد بأن مدكور كان محتجزًا مثل فئران التجارب لدى كائنات فضائية قادمة من كوكب بعيد، وأنهم أطلقوا سراحه ضمن خطة محكمة لمراقبة ردود فعله عندما يندمج مع البشر. وقد عزز من هذا الاعتقاد أن بشرة مدكور عند ظهوره كانت تميل إلى اللون الأخضر وعيناه زائغة كأنه يبحث عن شيء ما.

بركات الحيّ الحيّ

منذ نحو مئة عام أو يزيد، لقي شخص يدعى «بهلول» حتفه من شدة التعب والإرهاق جرَّاء سيره لمسافات طويلة على الأقدام عبر منطقة صحراوية قاحلة برفقة مجموعة من الحجيج كانوا متجهين صوب الأراضي المقدسة في مكة المكرمة.

ذلك الرجل كان شديد الثراء، لكنه رغم ذلك كان يعيش حياة يسودها الزهد والتقشف والبساطة، وأنفق كلَّ ثروته على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والمحرومين.

لم يجد رفاقه من سبيل سوى دفنه في المنطقة الصحراوية التي أسلم روحه فيها...

يُقال إنه في أثناء مراسم الدفن، اقترب من النعش شخص كان مصابًا بشلل في يده اليمنى، وبمجرد أن

لمس النعش بيده حتى وقع على الأرض مغشيًا عليه، ثم قام فجأة وهو يقفز فرحًا ويحرك يده مهللًا وصائحًا:

– الحمد لله، يدي تعافت!

بعده صرخ رجل عجوز ضرير:

– الله أكبر، عيني أصبحت سليمة وأرى كل شيء!..

عندها خَرَّ الجميع سُجَّدًا لله شاكرين له على ما رأوه بأم أعينهم من معجزات تفوق الخيال. ومن ذلك سيدة كانت مصابة بحالة متأخرة من سرطان الثدي شفيت تمامًا بعد أن انكبت على النعش، وأخذت في البكاء والدعاء فانقشعت كل آثار السرطان عن ثدييها.

تواصلت العجائب حول مقام الشيخ بهلول وتسامع الناس بها في كل القرى والنجوع والواحات وحتى المدن البعيدة، بل إن البعض أشاع أنه يخرج من مرقده أحيانًا ويجوب الصحراء لإغاثة المحتاجين ونجدة الفقراء والمساكين، فجاءت الأفواج تترى إلى حيث مقام الولي لنيل البركة.

***

انتشرت المقولات التي تؤكد أن كل مريض يمس مقام الشيخ كان يدخل في طور من التقلصات يشفى بعدها تمامًا مهما كانت صعوبة مرضه. وشيئًا فشيئًا تحول القبر إلى مزار شهير بمن في ذلك الحجيج الذين كانوا يقطعون الصحاري والفيافي في طريقهم إلى الحجاز.

كان أكثر رواد المقام، من أتباع الطرق الصوفية والمجاذيب، ومن بينهم شخص مجذوب اشتهر بإتيان الأفعال الخارقة للعادة بعد أن يخرج من المقام يطلب من الجميع أن ينهالوا عليه بالضرب دون أن يشعر بأي ألم أو تظهر آثار للضرب، بل إنه كان يُلقي بنفسه وسط اللهيب أمام الناس دون أن يصيبه أي أذى، أو أن يقف على الجمر لساعات دون أن تصاب قدماه بأي أذى. وغيرها من الخوارق مثل ارتفاع جسمه في الهواء لبضعة أمتار ثم الهبوط وسط دهشة الجميع وتكبيرهم.

غير أن كل ذلك انقلب رأسًا على عقب بعد أن اعتنق كثير من الناس المذهب الوهابي الذي يحرم

تحريمًا قاطعًا التبرك بالقبور والأضرحة، وفي أحد الأيام اقتحم أتباع إحدى الجماعات السلفية على الضريح وعاثوا فيه فسادًا وتخريبًا وتدميرًا، فتوقفت المعجزات بعد أن بات الناس يخشون انتقام أتباع الجماعات إذا اقتربوا من ضريح الشيخ المبروك!

مرت الشهور والسنين، وبعض مريدي الشيخ المبروك يؤكدون أنه جاءهم في المنام وتوعد مَن قام بتدمير مقامه بالويل والثبور وعظائم الأمور... وما زالوا ينتظرون!

لعنة حتحور

في عام ١٩٧٦ كان زوجان فرنسيان يتجولان في حي خان الخليلي(*) بالقاهرة، وفي تلك الأثناء لفت نظر الزوجة تمثال للإلهة الفرعونية «حتحور»، على هيئة امرأة تحمل تاج عبارة عن قرنين بينهما قرص الشمس.

توقفت «سيلفيا» بانبهار أمام التمثال، خاصة أن البائع أكد لها أنه تمثال أصلي وليس مقلدًا، فقررت شراءه والاحتفاظ به كتذكار عن رحلتها السياحية التي لا تُنسى بين ربوع مصر.

(*) أحد أحياء القاهرة القديمة، يتمتع بجذب سياحي كبير بالنسبة لزوار القاهرة ومصر بشكل عام . يتميز بوجود بازارات ومحلات لبيع الآثار الفرعونية المقلدة.

يبلُغ عُمر الحيّ 600 عام، حيثُ يُعتبر واحدًا من أقدم الأسواق في مصر والشرق الأوسط، وما زال مُحتفظًا بمعماره القديم مُنذُ عصر المماليك .

أخفت «سيلفيا» التمثال الأثـري ضمن حقيبة ملابسها تجنبًا لأي مساءلة قانونية، ثم أبحرت وزوجها على متن الباخرة المتجهة إلى ميناء بوردو الفرنسي، وبمجرد أن أقلعت الباخرة بدأت سيلفيا تعاني من آلام مبرحة في أسنانها لم تخف حدتها رغم كثرة المسكنات التي تناولتها.

وهكذا أمضت «سيلفيا» الرحلة البحرية وهي تتألم، وعند وصولها إلى ميناء بوردو لم تتمكن من زيارة طبيب الأسنان بسبب تعرضها لحمى شديدة في كل مفاصل جسمها.

وبعد أن تعافت قليلًا ذهبت إلى طبيب الأسنان انزلق المبرد الخاص من يده فأصاب عصب السن بدلًا من تاجه فسبب لها آلامًا فوق آلامها كانت هي في غنى عنها.

وفي الجزء الثاني من الرحلة، أي على ظهر القطار المتجه من بوردو إلى باريس، تحول التمثال الفرعوني بالصدفة من حقيبة سيلفيا إلى حقيبة زوجها فالبير فأصيب وهو في القطار بآلام أسنان لا تطاق.

توجه إلى طبيبه بمجرد أن وصل إلى باريس فأخبره الطبيب أن أسنانه لا تعاني من أي مشكلة... وكانت المفاجأة أن آلامه توقفت وهو عند الطبيب، لكن بمجرد أن دخل البيت عاودته الآلام. فقرر فالبير التوجه إلى طبيب آخر فحصل معه نفس ما حصل مع الطبيب الأول!

وفي باريس، زار فالبير والدته فأعجبت بالتمثال كثيرًا وطلبت من ابنها اقتناءه ولم يمض على احتفاظها به ساعتين حتى بدأت تعاني من آلام الأسنان، فأعادته إليه قائلة: «إنه فأل سيء!».

لم يتوقع أحد حتى الآن وجود رابط بين التمثال وآلام الأسنان، إلى أن طلب أحد أصدقاء فالبير استعارة التمثال حتى تراه زوجته، لكن ما لبث أن أعاده إليه قائلًا إن زوجته تعرضت لآلام بأسنانها بمجرد أن وضعته في غرفتها.

عندئذ تذكر الزوجان أن آلام الأسنان كانت تظهر عند احتفاظ أي منهما بالتمثال، فاقترحت

سيلفيا تحطيمه إلا أن زوجه خاف من أن تصيبهم لعنة الفراعنة، وفضّل بدلًا من ذلك إعطاءه إلى أحد أصدقاءه الذي كان مسافرًا إلى مصر لإعادته إلى حيث جاء به!

***

يعتقد البعض بوجود فطريات قاتلة زرعها الفراعنة في المقابر المغلقة، وعندما يحاول أحدهم فتح المقبرة تنطلق الفطريات في الهواء. ما يعني أن الفطريات قد وُضِعت عمدًا لمعاقبة سارقي القبور. في حين أنه لا يوجد أي أدلة على أن مُسببات الأمراض هذه قد تسببت في الأمراض التي داهمت مقتني تمثال حتحوراً إلا أنه لا يوجد شك بأن هناك مواد خطيرة تتراكم في القبور القديمة. ومع ذلك، في التركيزات الموجودة عادة ما تكون مسببات للأمراض الخطيرة فقط للأشخاص ذوي المناعة الضعيفة.

البيت المسحور...

قضى الحاج «طايع» معظم أيام حياته ممارسًا لهوايته المفضلة في التنقيب عن الآثار، ومساعدة عصابات التنقيب في العثور على الكنوز الفرعونية في صحاري الصعيد الشاسعة. مستعينًا في ذلك بجهاز يمكنه من تحديد أماكن المخبوءات في أعماق الأرض.

كان يفعل عن ذلك رغم أنه كان يشغل منصبًا إداريًا كبيرًا في جامعة المنيا، والأغرب من ذلك أنه كان يفعل ذلك من باب حب الاستطلاع، وغالبًا لم يستفد أي شيء مادي من مردود بيع الآثار التي كان يساهم في العثور عليها.

بعد أن ذاع صيته في التنقيب عن الآثار وأصبحت سيرته على كل لسان- كما يقال- رضخ لنصيحة رئيس الجامعة بأن يتقدم باستقالته لتجنب الشبهات

التي بدأت تحوم حوله، فلم يكذِّب خبرًا وترك وظيفته الحكومية واشترى منزلًا بالقرب من منطقة معروفة بكثرة الآثار، وقرر أن يتفرغ كلية لهوايته التي تحقق له المتعة الوحيدة في حياته.

لكن هذه الخطوة قلبت حياته وحياة عائلته رأسًا على عقب.

أما المسؤول عن هذا الأمر فقد كان «الساحر» الذي يسكن في بيت ملاصق لمنزله الجديد. فبعد أن تعارفا أكد له الساحر قدرته على تحديد أماكن الكنوز الفرعونية بدقة شديدة، وهو ما جعل الحاج طايع يتقرب منه ويصاحبه آملًا في مساعدته في التنقيب عن الآثار.

كشف له الساحر أيضًا عن العديد من القدرات الخارقة الأخــرى، منها هجرة جسده كل مساء والذهاب إلى أي مكان يريده، إضافة إلى إيقاع الأذى بكل من يضايقه أو يقف في طريقه، بل إن لديه القدرة على إبعاد أي شخص لا يرغب فيه وذلك عن طريق رسم نجمة خماسية في ذهنه وتوجيهها للشخص غير المرغوب فيه فيمنعه من الحضور.

في البداية اعتقد الحاج طايع أن الساحر يبالغ في إظهار قدراته الخارقة لغرض في نفسه، لكنه قرر أن يجرب ذلك بنفسه، فاستلقى في إحدى الليالي على سريره وتخيل نجمة خماسية على جدران غرفة نومه.

في تلك الليلة ذاتها، استيقظت زوجة الحاج طايع مذعورة وأخبرت زوجها أنها رأت شخصًا ما في الغرفة، ظهر على شكل ضوء ثم اختفى بالتدريج إلى أن تلاشى.

في اليوم التالي، أخبر الساحر الحاج طايع أنه حضر لحجرة نومه ليلًا إلا أنه انصرف بعد أن وجد السرير محاطًا بنجوم ملتهبة. فأيقن الحاج أن كلام الساحر في محله، وطلب منه بلباقة- لكن فيما يشبه التحذير- ألا يكرر فعلته.

مرّت ثلاثة أيام على هذه الحادثة، بعدها مات الساحر في ظروف غامضة... أشاع البعض أنه تشاجر مع أحد أبناء القرية فهدده الساحر بأنه سيشعل النيران في منزله باستخدام السحر الأسود، وهو ما حدث بالفعل، وفي صباح اليوم التالي وُجِد الساحر مقتولًا في عقر داره.

المفزع أن أفعال ذلك الساحر لم تتوقف حتى بعد موته، فعندما كان يمر أحد الأشخاص من أمام منزله حتى يصاب بنوع من الرعب والفزع، وعندما يتجاوز المنزل يعود إليه الهدوء، وهو ما لم يجد له أحد تفسيرًا حتى الآن.

الطريف أن معظم الذين يمرون بهذا المنزل المسحور يسيرون سراعًا وهم يكبرون ويحولقون ويسبحون، ويرددون الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[طه: 69] – صدق الله العظيم

الدوائر المجهولة

في ٣ مايو ١٩٤٢م، كادت تقع مجزرة بين أكبر عائلتين في القرية، بسبب حادث تخريب في حقول قمح تابعة لعائلة «الونش» التي كانت في خصومة ثأرية مع عائلة «أولاد غرباوي». فاعتقد أبناء العائلة المتضررين أن ما حدث ليس إلا بفعل فاعل من العائلة المناوئة لهم.

بدأت الأزمة في صبيحة أحد الأيام الصيفية، عندما اكتشف أبناء الونش تعرض محاصيلهم إلى التلف في ثلاثة حقول متجاورة، فاعتقدوا أن ذلك تم بفعل فاعل أراد النكاية بهم والعبث بأرزاقهم.

قبل أن يحدث الاشتباك الدموي، تدخّل العقلاء من أبناء القرية قائلين أنه لا يوجد أي دليل على حدوث تخريب متعمد في الحقول، فلم يجد أحد أثرًا لدخول أشخاص أو جرارات لإحداث ذلك التلف الشديد.

لكن ما توقف أمامه الجميع متعجبين له، هو أن التخريب لم يكن عشوائيًا وإنما كان على شكل دوائر متماثلة في الشكل والحجم، بل إن هذه الدوائر كانت محاطة بمحاصيل قمح غير تالفة، دون وجود أي ثغرة يعبر منها المخربون.

وقد ازدادت الدهشة، اكتشاف البعض أن التخريب تم على مراحل متعاقبة وفي أوقات متباعدة، كما أن الدوائر مرسومة بدقة متناهية.

حاول بعض المتعلمين من أبناء القرية تفسير الأمر علميًا بأن ما حدث كان نتيجة عاصفة هوائية أو زوبعة صيفية، لكن هذا التفسير لم يقبله أحد معللين ذلك بأن الزوابع لا يمكن أن ينتج عنها دوائر كاملة بهذه الدقة، وإنما تكون آثارها في الغالب عشوائية.

***

مرَّت أكثر من عشرة أعـوام على تلك الحادثة التي تناساها الناس عندما لم يجدوا تفسيرًا منطقيًا لها، إلى أن ظهرت في شهر أغسطس من عام 1965

دوائر مماثلة في قرية أخرى على خط الصعيد، فتذكّر المعمِّرون من الأهالي ما حدث في قرية مجاورة لهم.

هذه القصة أثارت انتباه مراسلي الصحف في محافظة أسيوط فأرسل بعضهم الخبر مع كثير من الإثارة الصحفية، ومنها أن دوائر الحقول هي بفعل كائنات فضائية هبطت في غفلة من الناس، وقد عزز من هذا الاعتقاد انتشار أنباء «الصحون الطائرة» التي شوهدت في أكثر من مكان بالعالم.

صحفي آخر نشر مقولات لمن قال إنهم شهود عيان، يؤكدون أن رأوا المحاصيل في الأماكن المتضررة تميل أمام أعينهم ثم تنكمش على نفسها، في حين قال آخرون إنهم سمعوا أصواتًا ليلية مخيفة لم يتمكنوا من تحديد مصدرها، وأحيانًا أخرى يشاهدون بريقًا يلمع، ثم يهدأ كل شيء ويحل الظلام.

الطريف أن مندوب إحدى الصحف لجأ إلى حيلة ظنًا منه أنها ستحقق له السبق الصحفي، حيث كلَّف بعض المأجورين بعمل دوائر في أحد الحقول

باستخدام جرار زراعـي، ثم قام بتصوير الدوائر وإرسالها إلى صحيفته، إلا أن هذه الحيلة لم تنجح، حيث اكتشف الأهالي ما حدث ولقنوا المندوب الصحفي والمأجورين درسًا قاسيًا.

حليونير الزقاق

زقاق «البومي» المتفرع من حارة «أم المساكين» بدرب «البندقي» بالسيدة زينب(*)، منزل «مغاوري»... كان على المذيعة «إنجي السماوي» بقناة «الأحلام» أن تصل إلى ذلك المنزل مهما كلفها الأمر من مشقة وعناء...

لم تكن «إنجي» وحدها هي المكلفة بهذه المهمة الشاقة، بل كان في صحبتها مُعِد برنامجها عمرو، والمصور محسن...

(*) من أحياء القاهرة الشعبية العريقة المكتظة بالسكان، وتتفرع منه حواري وأزقة ومساكن ضاربة في القدم. ويوجد به "قلعة الكبش" من المناطق الشعبية المشهورة، وأيضًا جامع أحمد بن طولون.

عرف الحي في العصر المملوكي باسم "خط السباع" نسبة إلى قنطرة شيدها السلطان الظاهر بيبرس "658هـ" على الخليج المصري الذي كان يمُر من أمام المسجد. وكان على هذه القنطرة رسم للسباع، وقد تم ردم الخليج المصري عام 1898م واختفت قنطرة السباع وظهرت واجهة مسجد السيدة زينب. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر بدأ يطلق على الحي اسم السيدة زينب المدفونة داخل المسجد.

انطلق هذا الفريق الإعلامي بسيارة القناة الفضائية إلى حي السيدة زينب، التي لم يكن الوصول إليه عسيرًا رغم شدة الزحام، بل كان الصعب هو الوصول إلى هذا الزقاق في تلك الحارة بذلك الدرب، وإلى منزل مغاوري بالذات.

عندما سأل وفد القناة الفضائية عن العنوان، قوبل من البعض بالاعتذار والإعراض، ومن البعض الآخر بالتهكم والسخرية... مع ذلك لم ييئسوا من العثور على العنوان المطلوب، خاصة بعد أن هداهم تفكيرهم إلى سؤال سمسار شقق قابلوه بالصدفة، فقال لهم أنه مولود «بالحته» ويعرفها شبرًا شبرًا، ومع ذلك بدأ يعتصر ذهنه كي يتذكر أين يقع هذا الزقاق في تلك الحارة من ذلك الدرب.

في البداية اصطحبهم السمسار إلى درب البندقي، وشقت سيارة الفضائية طريقًا وعرًا متعرجًا كان أصعب ما فيه مضايقات أطفال الحواري والمياه الراكدة التي كادت السيارة تغوص فيها عدة مرات، حتى وصولوا إلى درب البندقي، وهناك سألوا عن

حارة «أم المساكين»، فأجابتهم فتاة من الحارة بضحكة مائعة:

– «شيء لله ياست»..، وحاولت التبسط معهم وطلبت أن يعطوها فرصة عمل في الفضائية.

كادوا أن يبتعدوا عنها مثلما تركوا قبلها عددًا من المستظرفين والمتطفلين لولا أن استوقفتهم وبدأت تصف لهم الطريق إلى الحارة، من اليمين ثم اليمين ثم اليسار ثم العودة للخلف ثم صعود مرتفع ثم الهبوط مع المنحدر حتى يصلوا إلى حارة أم المساكين.

لم يجدوا مفرًا من ترك السيارة ومتابعة مغامرتهم سيرًا على الأقدام لأن الطريق متعرج وضيق، وعندما حمل محسن كاميرا الفيديو الكبيرة على كتفه كان منظرهم مثيرًا للمارة من أهالي الحارات، خاصة المذيعة إنجي بزيّها الارستقراطي، وهي تسير بصحبة الشابين والسمسار.

أخذ أطفال الحواري ينضمون إلى موكب المذيعة وزميليها على دفعات تزيد كلما اقترب الموكب من حارة أم المساكين التي يقع فيها زقاق البومي ومنزل مغاوري.

لم تنفع صيحات السمسار في إبعاد الأطفال عن المذيعة وزميليها وإفساح الطريق لهم، بل تابعوهم حتى النهاية لاستطلاع الخبر ومعرفة سر حضور المذيعة الحسناء إلى هذا العالم القابع في زوايا النسيان.

ارتفع صراخ محسن المصور نحو الأطفال وهم يلحون عليه حتى يظهروا في التلفزيون... وبكت المذيعة وهي تتعرض لسيل من عبارات التحرش والغزل المفضوح، وأقنعها معد البرنامج بأن تتحمل حتى تنتهي مهمتهم.

***

وصلت «الزفة» أخيرًا إلى زقاق البومي، ولاح لهم منزل مغاوري الذي لم يكن سوى بيت متهالك مبني من الطوب الأبيض بين مجموعة عشوائية من البيوت في زقاق لا يزيد اتساعه عن المترين عرضًا، يلطخ الوحل أرضه والنفايات متناثرة على جانبيه.

وقد سبق دخول المذيعة وزميليها للحارة صياح الأطفال وإعلانهم خبر بحث بتوع التلفزيون عن منزل مغاوري بطريقة مثيرة جعلت كل سكان الزقاق

يخرجون لاستطلاع الخبر ومعرفة السر الذي من أجله يحضر ثلاثة من التلفزيون إلى زقاقهم القابع في أعماق حي السيدة زينب..

ما هو السر، ماذا حدث؟

كان الحاج مغاوري صاحب البيت هو أكثر سكان الزقاق إحساسًا بالدهشة والحيرة حين سمع اسمه يتردد على كل لسان وأن المذيعة تقصده هو بالذات، فخرج من بيته يهرول نحوهم وعلى وجهه تساؤلات وسألهم:

– خير يا بهوات.. حصل إيه؟!، عاوزين مني إيه؟!، أنا الحاج حسين مغاوري.

أجابه معد البرنامج عمرو بابتسامة باهتة:

– مش عايزين منك حاجة، احنا عايزين واحد ساكن عندك اسمه... اسمه «سعدون أبو مندور»، فصاح الحاج حسنين:

– ليه ماله.. عمل إيـه؟!.. عمل حاجه.. منضم للإرهابيين واللا عمل حاجه بطّالة؟!

طمأنه عمرو أن المسألة ليس فيها إرهاب ولا يحزنون... وانبعث من بين الجموع صوت متحشرج خايف يعلن أنه أبو مندور، ويتساءل باضطراب:

– عايزين مني إيه..؟

التفت الجميع نحو سعدون... وصالح الجميع:

– هو ده سعدون أبو مندور بعينه،

ساد الوجوم، والجميع في انتظار ما تقوله المذيعة أو مَن معها تفسيرًا لهذا الموقف الغامض، ولكن لم يقل أحد شيئًا، وطلبوا من مسعود أن يصحبهم إلى شقته وترجّوا الآخرين بأن يفسحوا لهم الطريق حتى يتمكنوا من الدخول والتصوير... وأخيرًا دخل الفريق الإعلامي إلى غرفة مسعود بالطابق الأرضي، بينما وقف مغاوري يمنع الناس من اقتحام البيت.

بقيت الجموع تنتظر أمـام الباب والأطفال يتصايحون والنساء لا يتوقفن عن التفكير والبحث عن سبب مجئ التلفزيون لمقابلة أبو مندور بالذات.. ذلك الرجل الفقير الذي يعمل فراشًا في إحدى المصالح

الحكومية ويعيش في هذا الزقاق منذ ثلاثين عامًا لم يزره أحد ولم يزر أحدًا.

فلماذا إذن حضرت إليه المذيعة والمصور؟

استمرت التخمينات والتعليقات والدهشة تصاحب كل هذا وهي ترتسم على وجوه الجميع، وبدأ صبرهم ينفد من طول غياب المذيعة في حجرة مسعود، وهي حجرة لا تشجع أحـدًا على البقاء بها خاصة هؤلاء البهوات الذي تعودوا حياة الفلل والشقق الفاخرة، وتلك المذيعة الرقيقة الحسناء التي اختنقت وصرخت وبكت من شدة الزحام حولها، كيف تطيق أن تبقى كل هذا الوقت بحجرة سعدون، وفيم يتكلمون، ولماذا جاءوا؟

***

في تلك الأجواء، كان محسن يصوِّر حجرة مسعود وحجرته ومحتوياتها البسيطة المتناثرة في الصالة.

وقبل أن يعرف مسعود شيئًا عن سبب حضور الوفد وسؤالهم عنه كان عليه أن يجيب على أسئلة المذيعة

الغريبة، حول ظروف حياته الخاصة ومرتبه وكيف يدير نفسه ومعيشته ومعيشة أولاده الأربعة؟..

والحقيقة أن مسعود كان خجولًا وهو يصارح المذيعة بأن مرتبه 900 جنيه.. يدفع منها 150 أجرة لسكنه في الغرفة، و 200 مخصصة للانتقال مِن وإلى عمله، و 300 لعم شلبي البقال ثمنًا للصابون والجبن والملح والزيت والسكر وبضع سجائر وربما علبة سردين كبيرة كل شهر... وما يتبقى يعطيه لزوجته لتدبر أمرها به، فتشتري الخبز منها وتمتعهم يومين أو ثلاثة في الشهر بأكلة كرشة أو لحمة رأس أو رجول، إضافة إلى الدروس الخصوصية ومصاريف مدارس الأولاد. أما الملابس فإن زوجته تعرف كيف تدبر ثمنها مما تحصل عليه مقابل خدمتها في البيوت مرتين أو ثلاثة كل أسبوع... أضاف:

- و«اهي ماشية والحمد لله».

ويتنفس سعدون الصعداء بعد أن ينتهي من إعطاء هذه الصورة السريعة لحياته وظروف معيشته، بينما

كاميرا محسن مسلطة على وجهه تتابع حركاته، ثم يتطلع للمذيعة بابتسامة مصطنعة فيها استجداء وتوسُّل:

- إيه المطلوب مني يا ست هانم؟

تبتسم المذيعة وتقول له:

- سؤال أخير يا سعدون... إزاي كنت بتشوف برنامج مسابقة المليون في رمضان بقناة الأحلام وأنت لا يوجد في بيتك تلفزيون ولا ريسيفر؟..

فوجئ سعدون بهذا السؤال، ولكنه أجاب قائلًا:

- شفت بالصدفة حلقة واحدة بس لكن مصدقتش إن في جايزة بالمبالغ الخيالية دي...

وقبل أن يكمل قفز لذهنه خاطر فسأل المذيعة بشغف:

- ليه بتسأليني السؤال ده بالذات؟

أجابته المذيعة والابتسامة تملأ وجهها:

- لأنك يا سعدون ربحت الجايزة الأولى وهي مليون جنيه..!

انطلقت صرخة عفوية من الرجل، وانكمشت زوجته في مكانها جامدة لا تتحرك وعيناها تكادان تخرجان من مكانهما وهي تنظر لزوجها...

***

خرج الخبر بسرعة البرق من حجرة سعدون فانطلقت الزغاريد عالية تجلجل في الزقاق، وخرج مغاوري إلى الجيران قبل أن يهجموا على بيته يعلن الخبر إليهم وهو في حالة هيستيرية...

تلقَّف الناس الخبر بشتى الأحاسيس.. بعضهم بذهول، بعضهم تجمد في مكانه، بعضهم صرخ:

- مش معقول.. مش معقول.

بعض النساء هتفت بذهول:

- ابن الايه مليون جنيه...

وزغـردت نساء أخريات بلا وعـي، والأطفال يصرخون ويطيرون في كل اتجاه:

- سعدون كسب مليون جنيه، سعدون الفرّاش.. كسب مليون.

وحين أشرق صباح اليوم التالي ارتدى سعدون كعادته بدلته الصفراء واستعد للخروج بعد أن هدأت نفسه من العاصفة التي انتابتها منذ عصر اليوم السابق وقال لزوجته بصوت خافت:

– انسي الموضوع خالص، كل شيء يفضل على حاله لغاية ما نفوق، وإذا كان عندك موعد لتنضيف شقة متتأخريش عنها، عايز كل شيء يستمر على حاله... ثم تركها وخرج.

وعلى طول الطريق في زقاق البومي، رأى النساء على الأبواب وخلف النوافذ ينادينه باسمه ويتوددن إليه، ويحيينه تحية الصباح، وأطفال يعترضون طريقه بعضهم يطلب خمسين جنيهًا، وبعضهم يطلب مئة، وبعضهم يتواضع فيطلب عشرة جنيهات فقط...

استوقفه عم شعبان البقال ويقول له بابتسامة منافقة:

– والله يا سعدون تستاهل كل خير.. صبرت لحد ما ربنا نولك

شكره سعدون، ولكن عم شعبان استدرجه للحديث ليعرف منه ماذا ينوي أن يفعل بالثروة الهابطة

عليه، ثم يعرض عليه أن يشاركه في محل البقالة ليوسعه ويملأه بالبضائع ويصبح سوبر ماركت كبير يدر أرباحًا طائلة...

تركه سعدون ومضى في طريقه فقابلته «زيزي الممرضة»، وبعد أن أغرقته بالتهاني طلبت أن يسلفها 5 آلاف جنيه... فتركها وانصرف دون رد.

مرَّ بالجامع الصغير على رأس الحارة، حيث يقف عامل الجامع ببابه فيصيح بسعدون:

– استعد يا بطل... فرش الجامع السنة دي عليك...

مضى سعدون محاولًا التخلص من كل هؤلاء البشر بألفاظ مضطربة وعيون زائغة ينظر إليهم بحذر ويخاطبهم بخوف والحيرة والدهشة هي الطابع المسيطر عليه أكثر من أي شيء...

***

سبق الخبر سعدون إلى مديرية الزراعة التي يعمل فيها بعد إذاعة اللقاء الذي أجرته المذيعة مع إعلان القناة الفضائية اسمه عدة مرات بأنه السعيد الذي ربح المليون جنيه.

فوجئ سعدون باستقبال صاخب ينتظره في المديرية، ليس من زملائه الفراشين فحسب، بل من الموظفين الكبار والصغار، حتى مدير الزراعة أرسل يطلبه وتبسّم في وجهه لأول مرة وسأله باستجداء:

– هتعمل إيه بالمليون يا سعدون؟..

اقترب المدير من هدفه ببطء ثم قال له بلهجة استعطاف واستجداء:

– أنا محتاج 100 ألف جنيه سلفة، مجرد سلفة...

طأطأ سعدون رأسه من الحرج وهو يسمع صوت المدير يناديه بأدب:

– هيه يا سعدون قلت إيه؟

همَّ سعدون بالانسحاب وهو يقول:

– تحت أمرك يا باشا...

وكاد يُصعَق حين رأى المدير يصطحبه حتى باب المكتب ويفتح له ويودعه مبتسمًا.

حينما خرج من عند المدير التف حوله زملاؤه يسألونه إذا كان سيبخل عليهم أم سيكون كريمًا، وقال له عم إبراهيم:

– ولدي الكبير مريض وعلاجه يحتاج 1000 جنيه على الأقل...

وحضر إليه رئيسه المباشر الذي طالما كان يشخط فيه ويسبه ويظهر عليه سلطانه ورئاسته ويعكس عليه كل مركبات النقص... جاءه والابتسامة تملأ وجهه وأخذه بالحظن وقبله، ثم انتهى بطلب 5000 جنيه سلف كي تساعده على جهاز ابنته، قائلًا له إن هذا مبلغ تافه بجانب المليون جنيه التي ربحها في غمضة عين...

والموظفون الصغر تـوددوا لسعدون الفراش وأجلسوه إلى جانبهم وهم يكلمونه بأدب، الكل يسأل عن المليون جنيه، وعيونهم فيها بريق مخيف لا يدري سعدون كيف يتلاشاه.

***

ذهبت ليلى زوجة سعدون لبيت «نسرين هانم» كي تنظف لها شقتها كالمعتاد، ولكن نسرين هي الأخرى كانت قد شاهدتها مع زوجها على الفضائية فتستقبل ليلى بدهشة وتساؤل:

– جيتي ليه؟!، لسه بتدوري على شغل، مش كفاية عليكم الثروة الخيالية اللي نزلت عليكم.

وأولاد سعدون عادوا من المدرسة ومع كل منهم عدة «كـروت» من المدرسين يعرضون خدماتهم لإعطاء الأولاد دروسًا خصوصية لتقويتهم.. مع تنهئة حارة بالثروة الطائلة.

كل شيء تغير.. انقلب رأسًا على عقب.

وكان على سعدون أن يواجه الموقف، فلم يعد يجدي طلبه من زوجته بأن يبقى كل شيء على حاله..، لا يمكن أن يبقى كل شيء على حاله.

حتى مغاوري، جاءهم يطلب مبلغًا ضخمًا لإصلاح البيت وإنقاذه من الانهيار، وحجته أن بيته هو «وش السعد» عليهم.. وطلب 10 آلاف جنيه فقط، وهو نقطة في بحر بالنسبة للمبلغ الذي هبط عليه...

لاحقته عشرات الأسئلة من جيران الذين يقابلونه في الشارع:

– يا ترى هتفضل في الزقاق يا سعدون والا هتدور على شقة في المبتديان أو المنيل، أو حتطلع فيها وتسكن في التجمع أو الشيخ زايد؟

واقترب منه شيخ الجامع ناصحًا:

– متفرطش في الخير اللي جالك من ربنا يا سعدون، احفظه لأولادك ومستقبلهم، ولكن متناسش حق الله فيه حتى يبارك لك، اتبرع بالعُشر على الأقل للجامع...

حسب سعدون بذهنه مقدار هذا العشر فوجده مبلغًا مخيفًا.

وامرأة جاءتهم تحمل طفلًا كسيحًا تسأل سعدون أن يساعدها في علاج طفلها الوحيد، ورجال يعترضون طريقه يواجهونه بابتسامة، نفس الابتسامة التي رآها مرسومة على وجه المدير وهو يطلب 100 ألف جنيه.

ظل سعدون جامدًا لا يتحرك.. والمبلغ الذي اقترضه أودعـه كله للزمن، لأطفاله في نفس

البنك الذي صرف منه شيك المليون جنيه، وبقي بالزقاق.. ببيت الحاج مغاوري، وفي كل صباح يقوم من نومه يرتدي بدلته الصفراء ويخرج لعمله، وفي وجهه جمود وتجهم، وقرر ألا يستمع إلى من يناديه أو يسأله عمّا فعل فيما طلب منه، وقذفته امراة «بكيس زبالة» فعاد يغير ملابسه وتأخر عن عمله واستقبله رئيسه بثورة جامحة وبصق في وجهه، وعندما ذهب يشكو لمدير المديرية هدده بالطرد من العمل إذا تأخر مرة ثانية، وشمت فيه الموظفون وسخروا منه...

عاد إلى بيته بعد الظهر فوجد طفلين من أولاده «مبطوحين» بالطوب من أولاد الحارة، والحاج مغاوري واقف في مدخل باب البيت يمنعه من الدخول ويطلب منه مغادرة البيت فورًا وإلا سيلقى بكراكيبه في الشارع، فهم لم يعودوا فقراء حتى يشاركوا الفقراء في بيوتهم، «وكفاية استحملناكم طول السنين اللي فاتت».

واليوم التالي... والذي يليه... كل شيء يزداد من سيء لأسوأ.

زملاؤه لا يطيقونه... رئيسه في العمل يكتب عنه التقارير السوداء والمدير يوقع الجزاءات بلا حساب، والموظفون ينظرون إليه باشمئزاز ويقولون ماذا ينتظر هذا الرجل المغفل وقد أصبح يملك مليون جنيه.. وسكان زقاق البومي وحارة أم المساكين.

كلهم أصبحوا يستقبلونه هو أو زوجته بالألفاظ النابية، وأطفال الحواري بالطوب والمعاكسات، وأحد المدرسين يضرب ابنه ضربًا مبرحًا فأصابه بكدمات شديدة، ومدرس يصفع ابنه الثاني، وعم شعبان صاحب البقالة يرفض أن يبيع ليه بالأجل، بل يرفض أن يبيع له أصلًا، وشيخ الجامع يتكلم في كل خطب الجمعة عن البخيل الذي يغل يده فيقعد ملومًا محسورًا...

***

في صبيحة يوم شتوي مطير، اكتشف سكان الزقاق اختفاء سعدون وعائلته، ورغم كثرة البحث والتحري عنه إلا أنه كان «مثل فص ملح وذاب»، وزاد من

غموض الاختفاء أنه انقطع عن عمله ولم يعثر له أحد على أثر حتى تاريخه.

«السيدة زينب»، اشتق اسمه من وجود جامع السيدة زينب . ويعد من أهم الأحياء الشعبية القديمة في القاهرة، حيث يوجد به بعض الحارات والأزقة المتداخلة. ويعتبر من الأحياء الشعبية العريقة والقديمة المكتظة بالسكان والعقارات القديمة، ومن أهم معالمه مسجد السيدة زينب، وجامع ابن طولون، وقلعة الكبش.

بلدة العواجيز

زمجرت أصوات البرق والرعد في السماء، وانهمرت الأمطار بغزارة مغرقةً الحارات والأزقَّة في الوحل، وكانت الأجواء شديدة البرودة.

خرج رجل طاعن في السن من داخل بيت متهالك بأحد أزقة البلدة، يمشي متعثرًا في بِرَك الطين، يسعل بشدة وهو يجمع قطعًا من الخشب المتناثر على الأرض ويضعها في جِوَال متهالك من القماش، ثم أشعل النار في الأخشاب وهو يواصل السعال.

في تلك الأثناء، ظهر من بعيد شبح يبدو أنه ضل طريقه إلى هذه البلدة، فكان يمشي وسط الضباب والمطر المنهمر، ويمسك بمصباح ينبعث منه ضوء خافت.

رغم الأجواء العاصفة، إلا أن -الشاب- كان يمشي بخطوات منتظمة ونشيطة ومستمرة محاولًا معرفة أين قادته قدماه في هذه البلدة التي لم يطأها من قبل، حتى لمح العجوز من بعيد فاقترب منه وحيّاه:

– مساء الخير يا جَد، أنا شاب غريب ضللت طريقي ولا أعرف أين أنا، أرجو أن تساعدني...

نظر إليه الشيخ العجوز بدهشة وقد زاد سعاله ثم دقق في ملامح الشاب بقلق ولم يرد على تحيته، فابتعد عنه الشاب وواصل السير في طريقه.

***

لم يمض سوى وقت طويل حتى جاءت سيارة وهي تسير بسرعة وسط الوحل، ثم توقفت فجأة بجانب الشاب فتساقط الطين المتناثر على ملابسه...

أطلَّ من السيارة رجل ذو ملامح تدل على أنه في أرذل العمر، وإلى جانبه سائق السيارة رجل عجوز أيضًا.

فتح الرجل العجوز نافذة السيارة وهو يسعل بشدة ونظر إلى الشاب ووجَّه حديثه إليه:

– هذا هو الشاب الذي تم الإبلاغ عنه الآن...

ثم تحدث إلى الشباب بنبرة عدوانية، وسأله:

– قُل لي من أنت، ومن أين أتيت، وماذا تريد، ولماذا جئت إلى هنا؟

ثم سعل العجوز بشدة، وسأل للشباب بغيظ:

– ثم، لماذا تسير بكل هذه هذه الحيوية والنشاط، وكأنك شاب يافع!

قال الشاب للرجل العجوز:

– أنا فعلًا شاب في الثلاثين من عمري.

التفت الرجل العجوز إلى السائق العجوز الذي يجلس بجواره وهو يضحك بهستيريا:

– ها ها ها... يقول إنه شاب

استمر الرجل العجوز في الضحك قائلًا بسخرية:

– أهلًا بأبو الشباب، الحقيقة أنك صيد ثمين... اصعد إلى السيارة، سَيُسَر كبيرنا برؤيتك أيها الشاب.

فتَحَ العجوز الباب الخلفي للسيارة ودفع الشاب إلى الداخل وانطلقت السيارة وسط الأمطار وضجيج البرق والرعد.

في أثناء سير السيارة قال الشاب للرجل العجوز:

– هل أخطأت لأني أسير بحيوية ونشاط.. أنتم ترتكبون جريمة كبرى بالقبض عليَّ بتهمة أنني لا زلت شابًا.

العجوز يضحك ساخرًا ويوجه حديثه للسائق:

– هل سمعت؟.. أكاد أنفجر من الضحك.

– السائق: شر البلية ما يضحك يا كبير.

– العجوز: ستكون ليلة ولا كل الليالي في البيت الكبير... أسرع حتى نستمتع!

ضغط السائق على دواسة البنزين فانطلقت السيارة مخترقة الشوارع الموحلة.

***

في البيت الكبير، ظهر كبير الجلسة وسط مجموعة من العواجيز، وهو رجل عجوز غزاه الشيب يرتدي زيَّه المميز ويشرب الشاي...

دخل الرجل العجوز وأدى التحية للكبير وجماعته..

– الكبير: ماذا حدث حتى تعود بهذه السرعة؟

– العجوز: لن تصدق يا كبير، لقد عثرت على شاب في الثلاثين!

الكبير ينهض واقفًا بدهشة..

– شاب في الثلاثين؟!..

وجحظت عيناه وهو لا يصدق ما يسمع.

– الكبير: هاته بسرعة..

دخل السائق العجوز وهو يدفع أمامه الشاب...

– العجوز: هذا هو الذي يزعم أنه شاب!

– الكبير للشاب: هل تدّعي بأنك شاب؟

– الشاب: أنا في الثلاثين ولا زلت شابًا، فهل ارتكبت جريمة؟

– الرجل العجوز يلكمه: يا لوقاحتك.. أتدّعي الشباب أمام الكبير!.. ألا تخجل؟

– الكبير: خذوه إلى غرفة الاستقبال فهو ضيفنا الليلة.. وغدًا نقرر ما سنفعل به.

أدّى الرجل العجوز التحية لزعيم العواجيز وخرج وهو يدفع الشاب إلى الخارج ويسعل، ثم دفع الشاب إلى داخل الغرفة...

سمع الشاب وهو يدخل الغرفة أصوات رجال عجزة يسعلون بشد، وكان الظلام بالداخل حالكًا.. وتعثَّر وهو يمشي في عكاكيز كثيرة تزدحم بمدخل

الغرفة، وعندما تحدَّث إليهم عَلِمَ منهم أنهم كانوا شبابًا مختلفين الأعمار، إلا أنه تم استدراجهم إلى تلك البلدة وحدث معهم ما حدث.

***

في صباح اليوم التالي ظهر الكبير وهو يتحدث للرجل العجوز قائلًا:

- هل الولد العجوز ما زال يدّعي أنه شاب؟.. احضره بسرعة.

بعد قليل دخل رجل عجوز بصحبة الشاب، لكن تبدو عليه علامات الكهولة والعجز والوهن.

- الكبير: هل لا زلت مُصِرًا أنك شاب يا... شاب؟

ضحك الكبير بشدة وهو يسعل...

ردَّ الشاب العجوز على كبير العجزة بصوت مرتعش:

- كيف تقول ذلك يا بني، أنا رجل عجوز وغادرت الشباب منذ زمن بعيد!

ضحك كبير العجزة وجميع الحضور، وكانوا جميعًا يسعلون... بما فيهم الشاب.

- كبير العجزة وهو يقهقه: أطلقوا سراح هذا... الشاب.

***

خرج الشاب العجوز من بيت كبير العجزة وواصل سيره باتجاه الشارع، حتى وصل إلى مدرسة ابتدائية فاقترب منها ودلف إلى الباب فإذا بمجموعة من الأطفال الشيبان يلعبون بساحة المدرسة... وعندما نظر إلى بقية الفصول اكتشف أنهم جميعا شيبًا وعجزة...

خرج من المدرسة يتابع سيره وهو لا يصدق ما يرى،.. فقد كان كل من يشاهده من الناس في الشارع أشخاص عجزة من مختلف الأعمار.

أخيرًا وصل الشاب العجوز إلى بيته، ودخل مسرعًا إلى غرفة نومه وهو يشعر بإعياء شديد، وعندما اتجه نحو السرير رأى زوجته امرأة عجوز في حضنها طفل رضيع شايب، فانتابته دهشة مروعة، وهرع إلى المرآة ونظر إلى وجهه فاتسعت عيناه وهوى على الأرض من شدة الصدمة.